أنا دمّي فلسطيني

اشتعلت منذ أيام منصّات التّواصل الاجتماعي بصور ومشاهد حملات التّبرعات المادّية لإخواننا اللاجئين السوريين الذين يعانون من التهجير القسري من بلدهم من جهة واحدة ويعانون من البرد القارس والثّلوج المتراكمة فوق خيامهم الهشّة من جهة ثانية. بالتأكيد مناظر الأولاد والبنات الصّغار تقشعر لها الأبدان وتهتز لها مشاعر العدو والصّديق ، فما بالك نحن الشّعب الفلسطيني الشّعب الذي هُجِّرَ وما زال يُهجَّر حتى هذه اللحظة.

لكن رغم كل ما قيل أعلاه إلّا أنه هناك العديد من التساؤلات التي اشغلتني وما زالت تشغلني حتى هذه اللحظة.

السؤال الأساسي الذي يطرح نفسه هو لماذا الآن وبهذا التوقيت؟

يعني كلّنا نعلم أنّ القضية السورية وقضيّة اللاجئين، بدأت منذ أكثر من عشر سنوات، فلماذا تذكّر الفلسطينيون في القدس والدّاخل الفلسطيني أن يخرجوا ، وبهذا الزخم غير المسبوق، بهذه الحملات الخيرية؟

ما الداعي لذلك؟ هل دبّت فينا النّخوة متأخرًا بعد عشر سنوات من بدء هذه القضيّة بالرّغم من أنّ المناظر هي نفس المناظر، والبرد هو نفس البرد، والخيام والتّشريد لا يزالوا عنوانًا لهذه القضية؟

ممّا لا شك فيه أنّ حملات التّبرعات لإخواننا السوريين كانت وما زالت مستمرة منذ بدء القضيّة السوريّة، وعادة ما تطفو وتنتشر بوسائل الاعلام في فصل الشّتاء

حيث تنتشر مظاهر الفقر والعازة في هذه الفترة، ولكنها لم تكن بهذا الزّخم والقوّة التي نشهدهما اليوم.

لا شكّ أنّ الشرارة لانطلاق هذه الحملة قد بدأت على يد الناشط الاجتماعي الكويتي المعروف باسم "أبو فلّة"، والتي لاقت تجاوبًا كبيرًا في العالم العربي عامة ودول الخليج خاصة، ونتج عنها جمع مبلغ كبير وصل إلى أحد عشر مليون دولار، مبلغ مجهول المصير حتى هذه اللحظة.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل من المعقول أن يكون هذا الشخص قد استفزّنا وأشعل نار الوطنيّة فينا، الوطنيّة التي طالما وضعت تحت المحك بكل ما يخص عرب الدّاخل الفلسطيني؟ الوطنيّة التي طالما شكّك فيها حتى أقرب المقرّبين إلينا. أو هل من المعقول أننا قد اتّبعنا "ترند" عالمي وركبنا على الموجة؟!

معروف أننا شعب يحب "يجاكر"، هل من الممكن أننا "نجاكر"، يعني "راح نفرجيكم مين احنا"؟

لكن لماذا السّوريّون وليس اللاجئون الفلسطينيون في لبنان الذين يعانون الأمرين؟ لماذا ليس أهل غزّة المحاصرين منذ خمسة عشر عامًا والذين يعانون من الذل والإهانة والاحتلال؟ أليس "الأقربون أولى بالمعروف"؟ كل هذه الأسئلة تدور برأسي وتقضّ مضجعي.

كانت الفكرة، في البداية، مساعدة اللاجئين وسرعان ما تحولت الى منافسة ضارية بين القرى والمدن وحتى العائلات. والشاطر فيهم من يخرج الى وسائل الاعلام

ووسائل التواصل الاجتماعي ليعلن عن المبالغ التي تم جمعها ، واذا استطاع احدهم ان يأتي بصور حصرية من المخيمات نفسها مع صور الاولاد والبنات ، فهذا احسن واحسن.

استمعنا الى اقوال الناس ، ومن خلال ردود المتواصلين على الفيسبوك، ما هو السبب لهذا التّبرع المفاجئ، القوي، فإن الإجابات تنقسم إلى قسمين: القسم الأول يقول أننا نقوم برد الجميل للشعب السّوري الذي قام بإيواء الفلسطينيين بعد نكبة 1948 ومدوا لهم يد العون ، حيث يتواجد اللاجئون الفلسطينيون في أكبر تجمّعاتهم في سوريا ما قبل الحرب الأهليّة وخاصّة في مخيّم اليرموك. وها نحن، الذين جرّبنا التشريد والتّهجير نردّ لكم جميلكم الذي لن ننساه، وها قد سنحت الفرصة لردّ الجميل ولو تأخر الأمر 73 عامًا.

أما القسم الثاني وهو القسم الذي معظمه من الشّباب المتعلم، صغار السّن الذي يرى في عمله هذا ترجمة للنخوة والمروءة واغاثة الملهوف التي طالما فقدها شعبنا بكل ما يخص التعاضد والدعم الاجتماعي لبعضنا البعض.

أما لماذا الشّعب السّوري بالذات؟ أنا لا أنكر أننا كشعب فلسطيني، وكجزء من سوريا الكبرى، أننا نحب الشعب السّوري ونستلطفه ونحب طريقة كلامه، ولكنته الجميلة.

لا شكّ أن للمسلسلات السّورية، وخاصّة مسلسل "باب الحارة" في بداياته، كان دورًا كبيرًا في تكوين هذا الشّعور عند جيل الشّباب مثلما كان الأمر بالنسبة لمسلسل "صح النوم"، "ومقالب غوار الطوشة" بالنسبة لجيل الكبار. قد

يستغرب البعض إذا قلت إنّ بعض القيم التي سمعها أولادنا من خلال مسلسل "باب الحارة" تفوق القيم التي يتعلّمها طلابنا اليوم وما زالوا يحاولون تذويتها، مثل عدم شهادة الزور أو حلف اليمين الكاذب، أو التعامل مع رب الأسرة والأب والأم والنّساء وأدب دخول البيت ومقاومة المحتل وما إلى ذلك من قيم النّخوة والمروءة والبطولة التي يتوق شبابنا إلى سماعها في عصر تغلب عليه الماديّة والتكنولوجيا والانفرادية، فهذه فرصة ذهبية لبث روح الجماعة والتعاون في صفوف مجتمعنا المتمزق.

ما يمكن أن أقوله إنّ روح التّبرع والتّطوع هو من أهم الأسس التي يجب أن يعول عليها مجتمعنا في المستقبل الغامض الذي نعيشه.

لذا من المهم أن نربّي الجيل الناشئ على العطاء لكل محتاج ومساعدة الغريب والقريب في هذا العالم الذي صغرت فيه المسافات حتى صرنا نلمس كل جرح يحدث فيه. لذلك أدعوكم للخروج والتّبرع بما تجود به أنفسكم لإخواننا في سوريا ولإخواننا في لبنان واليمن وغيرها من البلدان.

لقد عوّدتكم أن أنهي حديثي بطرفة، ولكني هذه المرّة سأنهي حديثي بقصّة حقيقيّة حدثت معي وغيرت حياتي بقدر كبير، هذه القصّة يعرفها أصحابي المقرّبين ولا أجد حرجًا في أن أقصّها عليكم:

"هذه الحادثة، غيرّت حياتي بصورة كبيرة. جلست بأحد الأيام في ميدان تقسيم في العاصمة اسطنبول لآكل طبق من الكنافة اللذيذة التي ترافقها البوظة بطعم الفستق الحلبي، وكانت برفقتي زوجتي وابنتي. وعند أول لقمة لي وإذا بيد صغيرة تجذب أطراف ثوبي. نظرت إلى يميني وإذا بطفل صغير قصير القامة يشدّ بثوبي ويقول " عمي أنا جائع، أطعمني " صعقت لجملته، فهو لم يطلب النقود ولا يستجدي، مجرد يقول أنا جائع. تذكّرت

أولادي وتذكّرت عطلتي وفندق الخمس نجوم الذي نقطنه. أمسكت به من ثوبه وأجلسته جنبي وناديت النادل وطلبت له الكنافة. استجاب النادل بامتعاض ولبّى الطلب على مضض، فهم كثر حسب رأيه ويضايقون الزبائن كما ادعى. لكنني لم آبه لاعتراضه او كلماته. " ما اسمك ؟! ومن أين ؟ ما عمرك ؟!" سألته تاركًا الكنافة والبوظة التي ذابت بفعل حر الصيف.

"انا اسمي احمد من الشام وعمري خمس سنوات". قالها وهو يأكل الكنافة بنهم وجوع. سألته زوجتي كما هي عادتنا "هل تريد ان تشرب شيئًا يا احمد"؟ حرّك رأسه رافضاً الفكرة كأنه يرفض ترك صحنه كي لا يأخذ النادل الذي يقف جانبًا وقد نفذ صبره، لكنه لا يجرؤ أن يفعل خوفًا من نظراتي المهدّدة. لم تتنازل زوجتي، كرّرت السؤال مرّة اخرى " هل تريد الكولا أم تريد الماء" ألحّت بلطافة ورقّة. عندها رفع رأسه الي وقال: " عمو إذا بشرب بتعطيني ليرة" اه يا ويلّي. فجأة وبدون سابق إنذار شعرت بدموعي تنزلق من عيني بلا توقف، وجدت نفسي أبكي بكاءً شديدًا كما لم ابكِ طوال حياتي. تساقطت دموعي بكثافة وانضمت الي زوجتي وابنتي. لم تتوقف دموعنا رغم استغراب المارّة من الناس الذين نظروا إلينا باستغراب وبعضهم باستهجان. لم أرَ الناس ولَم أرَ النادل الذي اختفى عن ناظري بعد أن طلبت الماء لأحمد.

أنهى احمد طعامه وأعطيته عشر ليرات، اخذها مسرورًا وقال شكرًا واختفى بين الجموع في ميدان تقسيم.

لم نأكل الكنافة، بل لملمنا حالنا وعدنا الى الفندق. ما زالت هذه الحادثة محفورة بذهني منذ سنوات وأخذت على نفسي عهدًا أن ارسم الابتسامة على وجه من استطعت من الأطفال".

أرجو لكم دوام الخير والعطاء.

أ.أيمن جبارة